مقدمة

المؤلف : على بن ظافر الأزدى المصرى

المتوفى سنة ٦٢٣ هـ

ولد ابن ظافر فى القرن السادس الهجرى سنة سبع وستين وخمسمائة ، فى عصر كانت القرى الإسلامية تتجمع فيه لملاقاة الصليبيين ، وفى بيئة يسودها الحماس الدينى وتشتعل بنار الرغبة فى الجهاد . ويخيم عليها قتام الحرب والقتال .

فى هذا الجو ولد ابن ظافر وتلقفه والده ، فتعهده بالتربية الدينية ، وذكرت مصادر حياته أنه قرأ على والده الأصول وتفقه على يديه . وكان والده يدرس بالمدرسة المالكية بمصر [١] ولم تكشف المصادر بعد ذلك عما إذا كان قد حفظ القرآن ، كله أو بعضه ، وحصل قدراً من الحديث لا بد منه ، إلى عناصر ثقافية أخر يتطلبها التعليم الإسلامى فى ذاك الأوان . وعلى أية حال فإن والد ابن ظافر كان يرسم لعلىّ خطًّا فى الحياة ، وكان الفتى يرسم لنفسه خطًّا آخر ؛ فقد كان متعلقا منذ شبيبته بالدنيا[٢] ، متطلعا لعتبة السلطان ، وأعد لخطة حياته عدتها فثقف الأدب وعلوم اللسان العربى ، شأن كتاب العصر وشعرائه الذين يرقى بهم أدبهم إلى مرتبة الوزارة ، وبرع فى الأدب ، فوجد فى أديب العصر وراعيه الأدبى ، والوزير الخطير آنذاك القاضى الفاضل ما يأمل من تشجيع ورعاية . ولندع قلمه يحكى طرفاً من الحديث عن بدء حياته مع الأدب يقول : « . . كنت فى صدر عمرى وبدء أمرى نشطت لجمع أخبار الشعراء فى البدائه والارتجال ومحاسن أشعارهم فى مضايق الإسراع والإعجال ، وسجعت حكايات لم يرقصها فى الطرس بنان ، ولم يطمثها قبلى إنس ولا جان ، فأوقفت عليها صدر ذلك الزمان ، وسيد فضلاء ذلك الأوان السيد الأجل الفاضل أبا على عبد الرحيم بن الحسن البيسانى ، رحمه

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

الله تعالى ، فحثنى على الازدياد منها ، والتطلب لها والبحث ، فاجتمع من ذلك جزء أحكمت ترتيبه ، وهديت تبويبه ، وسميته بدائع البدائه ، ورتبت الأخبار فى كل باب منه على ترتيب الأعصار . . . . ، فلما رأى ما اجتمع منه سر به واغتبط ، وأكرم نزلته فاغتبط ، وشرفنى على صغر سنى ونضارة غصنى بأن أنتسخه لخزانته وحباه بحفظه وصيانته » .

ولتم لابن ظافر أدوات خطته فى الحياة عكف على كتب التاريخ يدرسها وعلى أخبار الملوك يحفظ منها جملة وافرة . وهكذا تجمعت له أسباب ثقافية من علوم إنسانية ولسانية ودراسات إسلامية أهلته جميعا لشغل منصب الأستاذية . ويروى أنه درس بالمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه [1] ، ويبدو أنه شغل هذا المنصب فى أخريات حياته بعد أن تنقلت به الأسباب فى خدمة الملوك .

وربما كان أول اتصاله بالملك الأفضل على بن صلاح الدين فى مرج عكا[2]، ثم اتصل بعد ذلك بالسلطان صلاح الدين ، وتوسل إليه بمؤلف تاريخى أدبى هو كتاب « ذيل المناقب النووية »[3] . وخلص بعد وفاة صلاح الدين لابنه الأفضل على (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ) الذى تولى دمشق ، وكان قد لقيه فى مرج عكا ، وقدم له قصيدة أوردها فى صدر كتاب التشبيهات ثم أهدى له هذا الكتاب نفسه بعد سنوات حين تولى السلطنة ، وكان لا يزال حينئذ فى ميعة الشباب .

وترسل ابن ظافر بعدئذ إلى الديوان العزيز[4] . ثم تنقل فى خدمة ملوك الدولة الأيوبية فاتصل بالملك العادل أبى بكر أخى صلاح الدين ، وكبير الأيوبيين من بعده ، وذكر ذلك فقال : « كنت فى خدمة مولانا العادل خلّد الله ملكه بالإسكندرية سنة إحدى وستمائة مع من ضمت حاشيةُ العسكر المنصور من الكتاب ، ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة مرتضعون لأفاويق النعمة »[5] . ثم اتصل

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر جـ ٢ ص ١٠٦ / ١٠٧ .

(٢) ذكر هذا فى الإهداء الذى قدم به لكتاب التشبيهات .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٣ ص ٦٩ وهذا الكتاب خط بالأسكوريال .

(٤) يقصد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين والذى تولى مصر بعد وفاة أبيه . راجع وفيات الأعيان جـ ٢ / ٤١٤ .

(٥) بدائع البدائه ص ١٧٧ — ١٧٨ .